القصص

من صور الحياة

قصة مجرم

للآنسة نعيمة المغربي

انعقدت محكمة الجنايات للنظر في قضايا مختلفة ومنها جناية قتل اتهم فيها فتى طيب الأحدوثة لم يسبق له الاجرام . وظهر من التحقيق أن الجناية لم تقع بقصد السرقة ، إذ أن خاتم القتيل الماسي وساعته الذهبية — وهو كهل غني — وأشياء أخر ذات قيمة لم يمسها القاتل ، مع أن المجال كان فسيحاً أمامه لسرقتها والاختفاء بها ، وإنما اكتفى القاتل بما فعل واللجوء إلى مسكنه الذي كان قريباً من محل الحادثة والذي كان يأوي إليه مع أمه المقعدة ، وقد قضت المسكينة نحبها حينما قبض الجند على ابنها من غلبة الخوف والرعب عليها

ذلك ملخص خبر الجناية التي شغلت أهل المدينة وخاصة سكان الحي الذي وقعت فيه الحادثة وكانت موضع سمرهم لأسفاً على القتيل الذي عرف بعتوه وصلفه وشحه ، بل شفقة على القاتل الذي عرفوا فيه الفتى الحسن الخلق ، يكد ويشتغل لينفق على أمه البائسة التي لم يك لها من عائل سواه . لذلك كله امتازت هذه الجلسة بوفرة عدد المستمعين فيها ، وكلهم مشفقون على القاتل راثون له

ظهر في قفص المتهمين شاب لا يتجاوز العشرين من عمره ، نحيل الجسم غائر العينين لا تظهر عليه علامة من تلك الدلامات التي يمتاز بها المجرمون ، بل كان بادي الانكسار هادئ النظرات مستسلما لخواطر تجول في رأسه وأحاديث تهجس في نفسه . وبعد سماع شهادة الشهود ومرافعة النيابة ومحامي الدفاع سأله الرئيس الأسئلة المعتادة التي تلقى على المتهمين وطلب منه إذا كان عنده ما يدافع به عن نفسه . وهنا أرهف المستمعون آذانهم وتطاولوا بأعناقهم حتى لا تفوتهم كلمة من قصة ذلك المجرم البائس قال :

إنني إذا سردت قصتي فأنني لا أسردها بغية الدفاع عن نفسي أو حباً في الحياة فقد سئمت العيش واستولت على النفرة من الناس ، بل لتعلموا أنني فرد من أفراد المجتمع البشري قدر عليه أن يعيش عيشة ضنك وشقاء ويحيا حياة مليئة بضروب الألم والعذاب ، وكنت في ربيعي الثاني عشر حينما فُتحت عيناي على صورة من صور الحياة المؤلمة التي تركتني أرزح تحت كلكلها وأصبحت حياتي بعدها جافة قاسية خالية من المباهج التي تساعد المرء على اجتياز ما قد يتخلل طريقه من حصى وأشواك

مات أبي وأنا صغير ، ولم يترك لنا أنا وأمي من حطام الدنيا سوى أساس عتيق بال في مسكن صغير تداعت أركانه ، وتشققت سقوفه وجدرانه ، وكان ذلك المسكن لجار لنا غني كنا نؤدي إليه أجرته من دون مطل أو تسويف . وكان أبي بناء يتناول في يومه بضعة قروش يأتي بها إلينا وهو فرح مغتبط مع ما يحيط به من فاقة وبلاء . فيملأ البيت بهجة ورواء ، ويحوله إلى قصر من أوفر القصور سعادة وأعظمها هناء

وبالرغم من قدم العهد فانا أذكر ذلك اليوم الرهيب يوم أن عرفت أن ذلك الانسان الذي يستنزف قواه ليدفع عنا غائلة السغب والعرى قد أخرسه الموت ونام نومه الأبدي

ففي أمسية من أمسيات الشتاء الباردة ، وفي ليلة دجوجية الجناح غدافية الأديم ، كانت الريح صرصراً عاتية ، وكرات الجليد تتساقط على جوانب بيتنا المتداعي فيسمع لسقوطها صوت كأصوات الأرواح الهائمة . طرق الباب فدخل رجلان يماثلاننا في الفاقة والبؤس يحملان جثة أبي مهشمة أو كتلة من لحم ودم . ولقد نسيت كيف مرت علينا تلك الليلة المشؤومة ، غير أنني أذكر أن جثمانه ظل مسجى طول اليوم التالي حتى شعر بذلك من لم

تخل قلوبهم من عناصر الرحمة والشفقة فأمدونا بقليل من المال جهزنا به فقيدنا وأودعناه مرقده الأخير . ومما زاد لوعتنا أن الطبيب الذى قام بفحص الجثة قرر أنه كان مريضاً بعلة القلب فلم يستطع احتمال العمل المجهد تحت حر الشمس فى أعلى البناء فأصابه دوار عرضه للسقوط والموت السريع . وكأن ذلك الأب الشفيق كان يخفى علته هذه عن أعى خشية قلقها أو محاولتها منعه من متابعة عمله المضنى ، وقد أصيبت تلك التاعسة على أثر هذه الصدمة التى بلينا بها بمرض عضال أقعدها عن مواصلة السعى لكسب القوت ودفع أجرة المسكن ، ومع هذا فقد كانت تتحمل الفقر والشقاء والمرض والاعياء بصبر واستسلام

لقد ألقت الأقدار بى من حيث لا أشعر فى بيداء هذه الحياة وضربتنى ضربة قاسية لا رفق فيها ولا هوادة ، وأرادتنى أحداث الزمان على أن أحمل حملاً أعجز عنه وأنا صبى صغير فتلاشت ابتسامتى واربدّ وجهى ، وعادت الحياة فى نظرى هماً ناصباً . أعى مقعدة لا تستطيع حراكا وهى تحتاج إلى قوت ودواء ، وصاحب المسكن يطالبنا بأجرته فى نهاية كل شهر ، وعلينا أن نؤديها إليه صاغرين وإلا كان الشارع لنا مأوى ، وقد أشار علىّ بعضهم بايداع المريضة فى إحدى المستشفيات ، فقبلت ذلك على مضض ، ولكن إدارة المستشفى أبت قبولها بحجة أن مرضها عضال لا يرجى منه شفاء . على أننى مع ذلك لم أيأس ولم أحزن رغبة فى أن أظل بجانبها أخدمها وأروح عنها ما تجده من آلام محرقة تحاول جهد طاقتها أن تخفيها عنى فتتكلف لى الابتسام ، ابتسام المريضة الصبور المستسلمة . لقد ذاق أطفال قبلى مرارة اليتم ، وذاق الكثيرون مثلى مرارة الحرمان والعُدم ، ولكن آلامهم لم تلك تشبه آلامى : إذ كانت آلامى آلام صبى فى أول مرحلة من مراحل حياته يرى تحت نظره أعز الناس لديه يدنو من الموت أو يدنو الموت منه بخطى سريعة فلا يستطيع التخفيف عنه أو إسعافه بجرعة دواء

أجل كنت أذرع البلدة وأجوس خلال شوارعها باحثاً بحث اليائس عن لقمة أتبلغ بها أو عن عمل يكفل العيش لى ولتلك المريضة المدنفة ، وكنت إذا حصلت على بضع دريهمات أضن بها على نفسى فأعود وأنا أظفر فرحاً فأشترى لها ما تحتاج إليه من غذاء ودواء وأوفر الباقى أجرة لمسكننا الحقير

وقد كنت أستطيع أن ألجأ إلى تلك الطريقة التى يلجأ إليها الكثيرون من أمثالى — أعنى السرقة — وكانت أحياناً تتجسم هذه الفكرة فى مخيلتى حينما أصاب بتلك الآفة المشئوم — آفة الجوع — ولكننى لا ألبث أن أرجع عن هذا العزم إذ أربأ بنفسى أن تنحط إلى هذه المنزلة مفضلاً كل شقاء على الوقوع فى هذا المنحدر الرهيب

وكنت أعرف أيضاً أن هناك سبيلاً أفضل من هذا كله أقصر مدى وأقل تعباً وجهداً . سبيلاً ينتهى بى إلى تخفيف متاعبى وآلامى وينقطع به همومى وأحزانى . فقد كان فى استطاعتى أن أقصر ساعات عذابى بالانتحار ، ولكن ذكرى المريضة المقعدة كانت تبعد عنى هذا الخاطر ، وتجعلنى أبتسم لليأس المميت فى ظل الحياة التعيسة التى أحياها

سدت فى وجهى أبواب الرزق ، وأمى تزداد مرضاً على مرض فلجأت إلى بيع أثاثنا البالى ، فبدأت بالفراش الذى أنام عليه والكرسى الذى أجلس فوقه وجميع الأمتعة الحقيرة التى يضمها مسكننا ، فنفد ذلك كله وهو مبلغ تافه لا تأثير له فى دفع الشقاء . ومما زاد فى بليتنا أن صاحب المسكن أخذ يطالبنا بتأدية ما تأخر له عندنا من الأجرة التى لا نملك منها شيئاً ، وأمهلنا بذلك ثلاثة أيام وإلا طردنا دون شفقة أو رحمة

طوفت فى هذه الأيام الثلاثة فى الشوارع ضاوياً متعباً مريض النفس والجسم والفكر ، صفر الكف ، فلم يفتح على بشىء حتى أعيانى التجوال ، وأرهقنى اليأس ، فرجعت إلى البيت أبكى بدموع غزار

انقضت المهلة المعينة لتنفيذ وعيد ذلك الظالم ، ولم يبق منها سوى ليلة واحدة لم يغمض لى فيها جفن ولم يرقأ لى دمع . وشعرت آنئذ بجميع ضروب اليأس ، وذقت من الألم أشكالا ، ثم اعترانى بحران عميق ، أصبحت فيه أشبه بالصنم . وعند ما انبلج الصبح ولاح لى وجه ذكاء بدا وجه أمى النحيل الشاحب ، وهى تتنفس تنفسا خافتا ، فانبثق فى لبى خاطر استجبت له : هو لقاء صاحب المسكن واستعطافه علنى أجد بذلك من الضيق مخرجا . فنهضت متثاقلاً ، وأنا ضائع الفكر مضطرب البال ، أقرب إلى اليأس من ذلك الغريق الذى يرتجف وسط الخضم وقد تعلق بأوهى الأسباب أملاً فى النجاة .